



GENERAL SECRETARIAT FOR FATWA AUTHORITIES WORLDWIDE

بحوث مؤتمر الأمانة العامة
لدور وهيئات الإفتاء في العالم
تحت عنوان



دور الفتوى في
استقرار المجتمعات

٢٦-٢٨ محرم ١٤٣٩ هـ ١٧-١٩ أكتوبر ٢٠١٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**معالجة أسباب ظاهرة الإرهاب والتطرف
وظاهرة الإسلاموفوبيا
في صفوف شباب الأقليات المسلمة**

أ.د. محمد بشاري

**عميد معهد ابن سينا للعلوم الإنسانية
رئيس الفيدرالية العامة لمسلمي فرنسا
أمين عام المؤتمر الإسلامي الأوروبي**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين أيدينا عنوان يتفرع على ثلاثة مواضيع أو ملفات قائمة بذاتها، وهي الإرهاب أو العنف، ثم الإسلاموفوبيا، وأخيراً، الأقليات المسلمة، وقد تعمدنا الحديث عن ثلاثة ملفات لأن التعامل مع موضوع الإرهاب اليوم، يتطلب منا أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل المحلية والخارجية التي ساهمت في تأجيجه، وإذا كانت العوامل المحلية خاصة بالأقليات المسلمة، فإن معالجة أسباب الإرهاب والتطرف والعنف والغلو الديني في صفوف الشباب في العالم الغربي، لا بد أن تختلف في بعض تفاصيلها عن المعالجة الخاصة في العالم الإسلامي.

ومن أجل التفصيل في هذه الملفات، فإننا سنتطرق في هذه المداخلة إلى المحاور التالية:

. دور المرجعيات الدينية.

. أدوار مؤسسات المجتمع المدني.

. الأسباب الخارجية للإرهاب والتأثير على سلوكيات الشباب.

. تأسيس مرصد متخصصة في الظاهرة الإرهابية.

دور المرجعيات الدينية

سوف نبدأ بما نعتبره أهم المحفزات المؤثرة في التحولات التي تطرأ على ممارسات وسلوكيات الشباب، بما يخدم أفكار الإرهابيين، أو الحركات الدينية التي تتبنى خيار العنف وتنفيذ الاعتداءات الإرهابية كخيار وحيد للتغيير والاحتجاج، إنه محفز المرجعية الدينية المؤثرة على سلوك هذا الشاب، وقد أصابت الورقة التمهيدية لهذا الملتقى عندما أشارت إلى أن الشباب الذي كان يبحث سابقاً عن المعلومة الدينية، أصبحت اليوم تأتي إليه طوعاً، عبر القنوات الإعلامية التي تمارس الخطاب الديني الذي لا يخضع لضابط ولا يقف عند حدٍّ، ولا يأخذ بمنهاج واضح.

والواقع أن الأمر لا يتعلق فقط بالقنوات الإعلامية والفضائيات الدينية، سواء كانت سنية أو شيعية، وإنما أيضاً بالعديد من المواقع الإلكترونية التي يصعب حصرها حتى على المؤسسات البحثية أو الأجهزة الأمنية، وهناك أبحاث حديثة الإصدار تعترف في خلاصاتها بالتأثير الواضح للمواقع الإلكترونية، وتوظيفها في استقطاب الشباب لتنفيذ اعتداءات إرهابية.

هناك إجماع من طرف الباحثين على أنه في أغلب الدول العربية والإسلامية، نجد أن للدولة والمجتمع ومؤسسات البلد لها مرجعية واحدة، وهي الإسلام، وربما أن الإسلام الذي تتبناه الدولة غير محدد بقوانين واضحة في كل شأن، ولكن مع ذلك الإسلام، يبقى بشكل أو بآخر، موجود في البيت وفي المدرسة وفي حياة الناس وجودًا تلقائيًا وأحيانًا في اللاوعي. والمتطرف العربي، كما لاحظ أحد الكتاب (1)، عندما يتطرف فإنه لا يبدأ من الصفر في تعلم الإسلام، لأن الدولة من خلال المدرسة والمسجد علمته مبادئه، وإنما يبدأ من قراءة جديدة في تفسير الإسلام، مناهضة ومعادية لما يُسمّى القراءة الرسمية، ولأنه يبحث عن قراءة مغايرة، يبحث هذا الشاب عن "هوية ثالثة" يجدها في إسلام بعض المساجد التي يديرها أئمة مشبهون، أو إسلام بعض المواقع على الإنترنت، ويصبح هذا الإمام أو هذا الموقع هو المرجعية الجديدة لهذا الشاب في تعلم الإسلام، بما في ذلك أبجدياته. ومزايا هذا المصدر للمرجعية الجديدة أنه مريح وبسيط لأنه يقيّم كل شيء إلى ثنائيات متضادة، إلى أبيض وإلى أسود، والعالم المعقد إلى دار إسلام ودار كفر، والناس إلى مسلم وإلى كافر، ويختزل التاريخ إلى غزوات وحروب وفتوحات وجهاد بالمعنى العسكري، أي أنه يوفر قراءة جديدة، ويسبغ معنىً بسيطًا لجميع الظواهر المعقدة، ويمنح راحة نفسية من صراع داخلي طويل ومرير.

إننا نرى أن أولى الخطوات التي من الضروري الانتباه إليها في معرض الاشتغال على معالجة أسباب الإرهاب والتطرف والعنف والغلو الديني في صفوف الشباب في العالم الإسلامي، هو الانتباه إلى دور المرجعيات الدينية، إلى طبيعة خطابها ومدى تأثيرها، والتفريق بين المرجعيات الإسلامية الوسطية، والمرجعيات الإسلامية المتشددة، مع وضع ضوابط وحدود وفوارق فاصلة بين الخطابين، حتى يكون الجميع على بيّنة، سواء كنا نتحدث عن الدولة أو عن المؤسسات الإسلامية أو عن الكتاب والباحثين في الحقل الديني، أو عن الدور المنوط برجال التعليم والتربية، وأكد أحد الفقهاء في هذا الصدد، أن إعداد منهج إسلامي نستطيع من خلاله حماية شريحة الشباب والأطفال من التشدد، يمر عبر التربية، "والتربية تعني التنمية، والتأديب يعني الترشيد؛ فكل مولود يولد على فطرة الخير، على التيسير والتوسط والاعتدال؛ ليس فيه تشدد أو تطرف، ثم أبواه "يشددانه" أو "يطرفانه"، لأنه يولد بصفات كلها خير تعينه على الانتفاع بالحياة هو ومن حوله والسعادة فيها، كصفات المحبة والتعاون والتراحم والتسامح والتشاور ونحوها، ثم على البيت والمجتمع تنميتها. فالحب الفطري ينمو ثم يزداد أكثر وأكثر باستخدامه عند التعامل مع الجيران والأقارب والزملاء والأصحاب، وصفة التشاور تنمو بالحوار المنزلي ثم المدرسي ثم الجامعي ثم العملي في الحياة العملية، والتكامل ينمو بالتعاون، والتراحم ينمو بالتكافل، والتيسير ينمو بالرفق، والتوازن ينمو بالاعتدال". (2)

أدوار مؤسسات المجتمع المدني

في رده على سؤال محرج حول تورط "خلية هامبورغ" في أحداث 11 سبتمبر 2001، اعتبر الدكتور الهادي الصباح، إمام مسجد مدينة باساو بألمانيا، أن "ظاهرة الإرهاب هي ظاهرة سلبية معقدة لها أكثر من جانب. ولا يستطيع علماء الدين وحدهم أن يحلوا هذه المشكلة. فظاهرة الإرهاب في عامتها هي ظاهرة سياسية وليست ظاهرة دينية". (3)، وإذا تجاوزنا بالتالي، عقبة وتحديات مرجعية الفقيه أو العلامة في التأثير على سلوك الشباب العربي والمسلم، يمكن، بالموازاة مع التوجيه الديني والفقهية الممارس من طرف هذا المرجع الإسلامي، الاشتغال على تحدي انحراط الشباب وقدرتهم على امتلاك الفضاءات التي توفرها هذه المجتمعات لإدماج شبابها في النسيج المجتمعي، من خلال تشجيع الشباب على امتلاك الفضاءات التربوية والإعلامية اللازمة، والكفيلة بإبعاده عن العنف والإرهاب والغلو، وإسهامه بامتياز في عملية التنمية، من منطلق أن إقصاء الشباب عن هذه المشاركة الفعالة، له آثار خطيرة، كارتفاع مستويات الكبت وتقويض التماسك الاجتماعي، مما يزيد من خطورة بعض المشاكل الاجتماعية كالفقر والجريمة والعنف والتطرف، كما أشارت إلى ذلك نفس الورقة التأطيرية للملتقى، وهذا يتطلب أو يفرض علينا - إلى جانب الإلحاح على الأدوار الكلاسيكية المنوطة بالمؤسسات الحكومية - التأكيد على الأدوار المصيرية والهامة التي يجب أن تقوم بها مؤسسات ومنظمات "المجتمع المدني"، ولعلها من الصدف السعيدة، أن ألقى هذا الخطاب في البلد الذي تأسست فيها أولى المبادرات العربية بخصوص إعادة النظر في أهمية منظمات وهيئات المجتمع المدني، كما أكدت على ذلك أشغال الندوة التي نظمت في تونس في الفترة الممتدة ما بين 26 و29 أكتوبر 1993، أي سنوات قليلة بعد سقوط جدار برلين، وأقتطف من البيان الختامي لهذا المؤتمر المؤسس، التأكيد على حتمية "وجوب سيادة مبدأ التكافؤ والندية بين المنظمات غير الحكومية في الشمال والجنوب"، وعلى "أهمية تطوير الحوار والتواصل بين الثقافات المختلفة"، والتأكيد من جهة ثانية، فيما يتعلق بالشق العربي، على "أهمية دور المنظمات غير الحكومية في تنمية القدرات والخبرات والمعارف حتى تقوم بدورها كاملاً في بناء مجتمع جديد، وذلك على ابتكار وسائل محلية للتمويل تأخذ بعين الاعتبار الواقع المحلي واستكشاف إمكانات التمويل العربي والدولي بما لا يتعارض مع استقلالية المنظمات".

وبعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على هذا الحدث المؤسس، انعقدت في تونس ندوة أخرى نظمتها "شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية"، تحت شعار "دور المجتمع المدني في تطوير جامعة الدول العربية في ضوء التحديات الإقليمية والدولية الراهنة" (4)، ونلاحظ أن السياق الزمني لهذه الندوة يأتي في فترة تتميز بتصاعد الأصوات والضغوط الخارجية بخصوص موضوع الإصلاح، وهذه جزئية هامة جدا في باب الدور الذي يمكن أن تقوم به منظمات المجتمع المدني في تأطير الشباب بما يقوض الأطروحات الإسلامية المتطرفة.

لقد أصبح مؤكداً أن الدول الغربية، وخاصة بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، تتصيد أي معوقات لإدماج المرأة والشباب في مشاريع التنمية والعمل السياسي والمبادرات الجموعية، من أجل الضغط على الدول العربية

والإسلامية بخصوص مطالب الإصلاح، وقد تتطور الأمور إلى درجة تقديم "وصفات استراتيجية" عبر مؤسسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، تساعد المسؤولين الغربيين على تنفيذ مخططات سياسية ومجتمعية تخدم بالدرجة الأولى المصالح الاستراتيجية الغربية، قبل أن تخدم المصالح العربية والإسلامية، وبالتالي، يصبح التسريع بإدماج الشباب في الحالة العربية، وتشجيعه على امتلاك الفضاءات التربوية والإعلامية اللازمة، وإلى جانب كونه يقطع الطريق على السقوط في فخ مشاريع العنف والإرهاب والغلو، فإنه يساهم أيضًا في قطع الطريق على المسؤولين الغربيين من أجل التدخل في تدبير الشؤون الداخلية للدول العربية والإسلامية.

لقد حذر متدخلون أمريكيون في يوم دراسي عقدت بالعاصمة الأمريكية منذ حوالي عامين تقريبًا، من أن التأكيد على أمن الولايات المتحدة الأمريكية في التعاون مع حكومات شمال أفريقيا قد تكون له نتائج عكسية، كأن يؤدي إلى إعاقة الإصلاحات السياسية، وأجمعوا أيضًا على أن القوى الأجنبية تركز اهتمامها في الدول العربية فقط على الجوانب الأمنية؛ بينما تتركز اهتمامات المواطنين على المشاكل السوسيو-اقتصادية؛ مثل الشغل، والتعليم، والصحة، والسكن، والرشوة. والنتيجة أن هناك شعورًا بالامتعاض من التدخل الأجنبي. (5)

إن المؤسسة المجتمعية المدني دورًا أساسيًا في التربية على المواطنة وحسها المستمر، من خلال تأطيرها وفرض نوع من المقاومة والحصانة لها، حتى لا يستسلم الشباب لهواجسهم، هواجس اليأس وفقدان الثقة، باعتبارها قدرهم المحتوم، وحتى يتمكنوا من الاستفادة من مختلف حقوقهم كمواطنين. فالجمعيات مثلًا أو الأحزاب كأحد مكونات مؤسسة المجتمع المدني تعتبر الإطار الملموس للاستفادة من حقوق المواطنة كالحق في التعبير أو التنظيم أو الحق في النقد والقدرة على بناء رأي واتخاذ موقف... إلخ، وهي بدون شك حقوق كونية لصحة وصلابة نمو أي جماعة. بل إنها المؤونة الأساسية لنمو الفكر الديمقراطي لدى مختلف مكونات المجتمع التي تؤمن بالفعل بالانفتاح التحرري والتأسيس لثقافة الحوار والتعدد والاختلاف. وبالتالي، يكون المجتمع ممتلئًا لكل أدوات الحصانة الأساسية للدفاع عن مكوناته من كل الضربات والتيارات المتعصبة الأحادية والمطلقة، كما يرى أحد الباحثين (6).

وبناء على ما سبق، يتضح الدور الحاسم الذي يقع على عاتق كل مكونات مؤسسة المجتمع المدني مهما اختلفت وتعددت تشكيلاتها، مما يستدعيها إلى فرض وجودها بقوة تنظيمها، ودمقرطة أجهزتها الداخلية والتغلب على تناقضاتها وموضوعية أطروحاتها، وأن تكون النموذج الواجب اللجوء إليه من طرف كل تائه مضطهد، وأن يمتد وجودها في مختلف فئات الشعوب العربية حتى لا تترك المكان لكل من سولت له نفسه بث أفكار اليأس والتفرقة في وسط شباب مجتمعا، فهي المعوّل عليها في دعم التضامن الاجتماعي بكل أنواعه، ولا يكفي في هذا المقام أن تكفّ قطاعات المجتمع المدني المختلفة، اجتماعية كانت أم سياسية، عن كل ما من شأنه بث روح الكراهية المتبادلة، بل إن الأمر يتطلب قيام جميع فئاته بجهد واع لدعم هذا التضامن بين مختلف فئاته، ويتبين هنا دور مثقفي ومفكري المجتمع في رفض ومحاربة الخضوع لجميع صور الإرهاب الفكري الذي يحول دون تقدم المجتمع برمته ويسيء إلى حملة شعلة الحضارة والحدثة.

الأسباب الخارجية للإرهاب والتأثير على سلوكيات الشباب:

إن الحديث عن الضغوط الغربية على الدول العربية في تدبير قضايا مجتمعية مصيرية، من قبيل تدبير قضايا الشباب، يستلزم منا أن نتوقف عند أهم العوائق التي تحول دون نجاح الاستراتيجيات العربية التي تسعى جاهدة إلى معالجة أسباب الغلو الديني في صفوف الشباب، وهي الأسباب الخارجية التي تشوش على الجهود الجبارة التي تقوم بها الدول العربية والإسلامية في التضييق على الخطاب الإسلامي المتشدد، سواء جاءت في شكل مراجعات فقهية صدرت عن الحركات الإسلامية المتشددة، والتي راجعت أدياتها السابقة وأصبحت اليوم تؤمن وتدعو إلى خطاب إسلامي وسطي، أو عبر المراجعات الحكومية المضادة، من خلال الإفراج عن المعتقلين الإسلاميين، وهذا ما قامت به تونس في منتصف الشهر الجاري، أو عبر بيانات ومبادرات علماء المؤسسات الإسلامية(7)، وأعمال المفكرين والباحثين(8)، ويمكن أن نقف عند حالتين من العوائق الخارجية: السياسات الغربية في التعامل مع القضايا العربية والإسلامية، ثم الدراسات الأكاديمية للباحثين الغربيين والتي تسعى إلى تبرير والدفاع عن "وجاهة" هذه السياسات.

فبالنسبة للسياسات الغربية، وخاصة منها السياسات الأمريكية، فلا حاجة لنا لأن نتوقف عند ما يجري في فلسطين والعراق وأفغانستان، وغيرها من الدول العربية والإسلامية، بل إننا قد نجد أن المواطنين العرب البسطاء يتابعون أدق التفاصيل لجديد هذه القضايا عبر ما تبثه المحطات الفضائية العربية والغربية، حتى إنه بالنسبة للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لم يتوقف الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما عن تأكيد دعمه الكامل لإسرائيل، كما أنه التزم في الخطاب الذي ألقاه في 5 يونيو الماضي أمام "لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية" بالحفاظ على التفوق العسكري لدولة إسرائيل من أجل مواجهة "أي تهديد قادم من غزة أو طهران"، واعدًا بتخصيص 30 مليار دولار كمساعدات عسكرية إضافية لإسرائيل والتأكيد على أن القدس ستبقى عاصمة لدولة إسرائيل، وأعلن أيضًا عن اعتراضه على حكومة فلسطينية توحد بين حركتي "فتح" و"حماس".

وبالنسبة للدراسات والأبحاث التي تصدر عن الأكاديميين والباحثين الغربيين، فإن مفعولها أخطر من السياسات لأنها توظف وتبرر أخطاء هذه السياسات، ولا يمر يوم أو أسبوع دون صدور مقالات صحفية وأبحاث من هذه العينة، ونقتبس منها النموذج التالي الذي حرره الكاتب الأمريكي دانييل بايبس، حيث أشار في إحدى مقالاته إلى أن "أكثر صور مكافحة الإرهاب فعالية وكفاءة لا تقاوم الإرهابيين وإنما تقاوم الأفكار التي تحرضهم، وتتضمن هذه الاستراتيجية خطوتين أساسيتين: الأولى هزيمة الحركة الإسلامية المتطرفة بنفس الطريقة التي تمت بها هزيمة الحركة الفاشية والحركة الشيوعية، على كل مستوى وبكل طريقة، وباستخدام كل الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة. ويقع عبء القيام بهذه المهمة أساسًا على غير المسلمين، فالمجتمعات المسلمة إما هي عاجزة وغير قادرة أو هي غير راغبة في ذلك، وفي المقابل، فإن المسلمين وحدهم هم القادرون على إنجاز الخطوة الثانية، وهي صياغة ونشر صورة للإسلام تتصف بالحدأة والاعتدال

والديمقراطية والحرية والليبرالية والإنسانية وتقبل الآخر واحترام المرأة. هنا يستطيع غير المسلمين المساعدة وذلك بعزل الإسلاميين المتطرفين وعدم التعامل معهم ومقاطعتهم وتأييد المسلمين المعتدلين". (9)

إن إصرار السياسات الغربية والدراسات البحثية في الغرب عموماً على عدم إنصاف القضايا العربية والإسلامية المصرية، يساهم بشكل مباشر في إعاقة المشاريع الكبرى والضخمة التي تقوم بها أغلب الدول العربية والإسلامية من أجل مواجهة الخطر الإرهابي، وطرق توظيف واستغلال الشباب في شبكات التطرف والعنف والإرهاب، ومن مسؤولية القادة والزعماء العرب أن يؤكدوا على هذه النقطة الحيوية في اللقاءات الثنائية أو الجماعية التي تتم بين المسؤولين العرب والمسلمين مع المسؤولين الغربيين.

2- صورة الإسلام المشوهة

ما هي الصورة التي يصدرها الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين؟ كنا قد توصلنا في خاتمة كتاب "صورة الإسلام في الإعلام الغربي"، ومن خلال تحليل لأهم نتائج الدراسات التي أجريت، لغرض معرفة مضمون موقف وسائل الإعلام في أوروبا، من قضايا الإسلام والمسلمين، وكيف تناول وعالج هذه القضايا الهامة والحساسة؟ إلا أن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، ولا تحفى عليكم أيها الحضور الكريم، أن أهداف ترويح وتصدير الإعلام الغربي لها بشتي الوسائل، الغاية الرئيسية منه: تشويه صورة الإسلام والمسلمين بشكل عام، وبلغت حدة هذه الهجمات الإعلامية الشرسة، إلى درجة وصف المسلمين بأوصاف بدائية وهمجية. غير أن نسبة ضئيلة جداً من المعالجات الإعلامية، سلمت من تتبع هذا النهج، والتي تدخل في إطار الاستثناء، ليس لها تأثير في الرأي العام ولا ترسبات على الإسلام والمسلمين على غرار سابقتها، إضافة إلى كونها مرتبطة بصاحب التغطية الذي يكون موضوعياً في كل ما يقدمه وليس بالنسبة للقضايا الإسلامية فقط.

تساؤل يطرح نفسه، لماذا وجهت كل هذه الحملات المضادة ضد الإسلام؟ ولفائدة من؟ من أهم هذه الاستنتاجات التي استنبطناها في إطار الموضوع المطروح، أننا وجدنا نوعاً من النزوع نحو ما يطلق عليه في لغة الإعلام "بشيطنة العدو"، الذي تم في هذه الحالة، وصف الإسلام والمسلمين به، وحصرهم في إطار تشويهي، يضيق الخناق عليهم، ويقوم هذا المبدأ على التحويل المعنوي لهذا "العدو" إلى شيطان من خلال نزع الصفة الإنسانية عنه، بحيث يستحق عقاباً صارماً يسمح للمضطهد أن يمارس اضطهاده على المضطهد، دون أن يكون مطالباً بتطبيق الشرائع وموائيق حقوق الإنسان المعروفة في التعامل مع البشر.

وما دام هذا اللقاء يأتي في سياق زمني عالمي يتميز باندلاع الربيع العربي وحرب عالمية على التطرف، والتي يصفها البعض بأنها حرب ضد الإرهاب في حين يصفها البعض الآخر بأنها حرب ضد الإسلام، وما دامت العديد من وسائل الإعلام الغربية كانت تتعمد الخلط بين القيم الإسلامية وتصرفات فئة معينة من المسلمين عامة، وبين بعض الحركات والجماعات الإسلامية المتشددة، فقد جاءت في خاتمة تلك التوصيات أن الإعلام الأوروبي ربط بشكل كبير بين الإسلام كدين وبين هذه الجماعات الإسلامية المتشددة، بل بلغت به الجرأة إلى حد أنه في كثير من الأحيان، تعمد هذا الإعلام عدم التفريق بين المسلم المعتدل في ممارسته الدينية، وبين المسلمين المنتمين لجماعات إسلامية، تختلف في أطروحاتها وفي حركيتها، ويتأرجح هذا الاختلاف ما بين الاعتدال والتطرف، وقد استغل هذا الإعلام السابق الذكر، فرصة الأحداث التي تورط فيها بعض الإسلاميين المتشددين، لتلطيح سمعة الإسلام والمسلمين ونسبهم للإرهاب عن طريق الإعلام المرئي، والسمعي، والمقروء، ولقد اعترف العديد من الإعلاميين بوجود صورة خاطئة عن الإسلام والمسلمين في مختلف وسائل الإعلام الأوروبية.

ونحن نتطرق لهذا الموضوع من زاوية تجربتنا الخصبية في تمثيل الأقليات الإسلامية لدى الحكومات الأوروبية، وخاصة في الديار الفرنسية، وقد أوصلنا استنباطنا المتواضع في هذا الميدان إلى الخلاصة التالية: أن احتجاجات قادة وزعماء الجاليات والأقليات الإسلامية في أوروبا، لم تتمكن في العديد من الحالات من التصدي السريع والنهائي، لمجموعة من المعالجات الإعلامية المغلوطة ضد الإسلام والمسلمين، أو ضد الأقليات الإسلامية وما نشير إليه في هذا الشأن أنه في بعض الحالات النادرة، أنتجت هذه الحملات المضادة للجاليات الإسلامية، نزع تقديم اعتذارات رسمية من كبار المسؤولين في أجهزة الدول ببعض الدول الأوروبية.

ما هي الأسباب التي ساهمت في فشل المسلمين في الغرب للتصدي لهذه الحملات التشويهية المكثفة في حقهم وضد الإسلام؟

في رأينا، يعود سبب هذا الفشل النسبي، بخلاف الوضع المتعارف عليه في مجل الدول العربية والإسلامية، بحيث غالبًا ما تتحكم الحكومات في وسائل الإعلام، فإنه في القارة الأوروبية مثلاً وفي الولايات المتحدة، يصعب أو يستحيل التحكم نهائيًا في وسائل الإعلام والتدخل في عملها، وفق القوانين المعمول بها هناك. إلا أنه يلاحظ بعض التحسُّن الذي طرأ على قليل من المعالجات الإعلامية في هذه القضية، كما بدأت بعض الوسائل تتجه نحو الموضوعية في عرض القضايا الإسلامية، نظرًا للتدخل النوعي القادم من لدن الأقليات الإسلامية في بعض الدول الأوروبية.

3- مسؤولية النخب السياسية في الأزمة

ونرى أننا لسنا في حاجة للتأكيد على أن هذه الخلاصات تبقى غنية عن التعليق، وما هو أخطر من ذلك، هو أنها تشوه بصفة كلية الصورة السمحة المعروفة عن الدين الإسلامي عند المسلمين، وعند كل المتبعين الغربيين الذين أنصفوا القضايا الإسلامية، سواء كان انتمائهم للقطاع السياسي أو الثقافي أو الأكاديمي أو الإعلامي.

من المسؤول المباشر عن هذه الوضعية المتأزمة في حق الإسلام والمسلمين؟

نشير إلى أننا لسنا في حاجة أيضًا، للتأكيد على أن الأزمات السياسية والدينية التي بزغت للوجود، في السنين الأخيرة، في أوروبا والولايات المتحدة، ساهمت في تغذية هذه الخلاصات، وتكرار نفس التعامل الإعلامي مع صورة الإسلام والمسلمين. سواء تعلق الأمر بأزمة الرسوم الدنماركية، أو موضوع منع تشييد المآذن في سويسرا، أو العديد من قضايا منع ارتداء النقاب في فرنسا، وبلجيكا، ونكتفي بسردها هذه الأحداث على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر لأن اللائحة طويلة، أخيرًا مسألة حرق مئات من النسخ القرآنية، في إحدى القرى الأمريكية المغمورة، الذي قام به قس مسيحي متطرف، هذا التصرف الشاذ، استدعى تدخل الرئيس الأمريكي باراك أوباما ووزيرة الخارجية هيلاري كلينتون.

ولكن تدخل الرئيس الأمريكي في أمريكا، لا يقابل بتدخل مضاد في القارة الأوروبية. عندما نسعى لوقف مثل هذه العمليات العدوانية ضد الإسلام والمسلمين والأقليات الإسلامية. من أجل ألا تتكرر هذه الحملات العدائية، وألا تمر بدون ردع قانوني.

ما الحل إذًا؟ وكيف نتعامل مع هذه الحرب النفسية الإعلامية التي تسعى إلى تدمير ما هو رمزي ومقدس عند المسلمين: دينهم الحنيف الإسلام؟

ونأخذ كمثال هام في هذا الصدد، موضوع الرسوم الدنماركية، الذي كان السبب المباشر، في اندلاع أزمة شبه عالمية، بين الحكومة الدنماركية، والعديد من الدول الإسلامية، وانقسام أغلب الفقهاء، والعلماء المسلمين، حول طبيعة التعامل مع هذه الرسوم، واستغلال التيارات والجماعات الأيديولوجية المتطرفة، من كلا الجانبين، من أجل تأكيد أطروحة المفكر الأمريكي الراحل صامويل هانتنتون حول صراع الحضارات، وبعد هدوء الأزمة، وبخلاف ما قام به الرئيس الأمريكي باراك أوباما، في أولى محطات أزمة حرق بعض النسخ من القرآن الكريم، قامت المستشار الألمانية أنجيلا ميركل، منذ أسابيع قليلة فقط بتكريم الرسام الدنماركي كورت فيسترغارد، الذي رسم تلك الرسومات المسيئة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم قبل 5 أعوام، إلى درجة دفعت ببعض وسائل الإعلام الألمانية للتأكيد على أن المستشار اليمينية تغامر بتكريم رجل "يعتقد المسلمون أنه أساء لدينهم".

3- البدائل العملية لمواجهة الصورة النمطية للإسلام:

إذا أردنا أن نساهم نظريًا وعمليًا في مواجهة أسباب هذه الصور النمطية السيئة عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، وإلى جانب الدور المنوط بالمسؤولين العرب والمسلمين (وهذه مسؤولية دينية وسياسية وحضارية بالدرجة الأولى)، يمكن أن نذكر ثلاثة محارج عملية وواقعية من أجل الانخراط الواعي والمسؤول في هذه المهمة الحضارية: توصيات عامة، دور الأقليات، دور الإعلام.

1 - توصيات عامة

هناك جملة من التوصيات العامة، والتي سبق أن تداولتها العديد من الندوات والمحاضرات التي تناولت موضوع صورة الإسلام في الغرب، ومنها صورة الإسلام في الإعلام الغربي، والمناهج الدراسية الغربية، وغيرها من الملفات، وقد أحصينا عشرات من أهم هذه التوصيات في كتابنا السابق الذكر، ويمكن أن نذكر منها هذه التوصيات:

. دعم العلاقة بين المرادف الإسلامية وممثلي الأقلية المسلمة في مختلف دول العالم، بما يتيح لأفراد هذه الأقليات الاتصال بالمرادف، وإبلاغها بأية معلومات يمكن الحصول عليها بهذا الشأن.

- تكثيف الاتصال بوسائل الإعلام الغربية، ومراكز البحوث والجامعات في الدول غير الإسلامية، لتصويب ما يصدر عنها بشأن الإسلام والمسلمين.

. الاجتهاد في فتح أبواب الحوار، مع مراكز التأثير في صناعة القرار، والرأي العام في الدول الغربية، وكذلك مراكز البحوث، والدوائر الأكاديمية، ووسائل الإعلام العالمية.

. التحرك السريع، لمواجهة المواد الإعلامية المسيئة للإسلام، بالتنسيق مع الهيئات والمنظمة المعنية.

- التنسيق مع وسائل الإعلام في الدول الإسلامية، لمواجهة ما يتضمنه التقرير السنوي.

. الاستعانة بخبراء العلاقات العامة، والإعلان عن الأكاديميين في الجامعات والمعاهد، ومن العاملين في المجال التطبيقي، لعقد اجتماعات وحوارات متخصصة، لكيفية تفعيل الحملات الخاصة بالعلاقات العامة والإعلان.

. مخاطبة الحكومات العربية، والإسلامية، لتفعيل مثل هذه الندوات، من خلال وزاراتها، وهيئاتها المسؤولة عن الثقافة والإعلام، والشؤون الإسلامية.

. مخاطبة أقسام الإعلام، والمؤسسات البحثية، والأكاديمية في العالم الإسلامي لإقامة، وحدة عمل صغيرة، محلية لتدارس هذه القضية الهامة.

ولا بد من التأكيد، على أن عدم تفعيل هذه التوصيات، يعتبر مبررًا كافيًا لأن تبقى الأمور كما هي عليه اليوم، وأن تزداد تآزرًا في أغلب وسائل الإعلام الغربية.

2 - دور الأقليات:

غالبًا ما يتم تجاهل الدور المنوط بالأقليات الإسلامية، والتي يمكن أن تشكل قوة ضغط كبيرة، إذا ما أحسن تنظيم جهودها واستثمار إمكاناتها، خاصة في ظل سيادة أجواء تبعث على التفاؤل، وتمس حرية التعبير، وحرية التفكير، في البلدان الغربية.

وإذا كان المسلمون والعالم الغربي، شأنهم شأن غيرهم، يتمتعون بهذه الحقوق، إلا أننا لم نحسن الاستفادة من هذا المناخ، بصورة فعالة لخدمة قضايا الأمة، مما أدى إلى ضعف هذه الأقليات، وتعاكس الدول والمنظمات الإسلامية عن دعمهم.

ولكن تفعيل الدور الحضاري الراهن وشبه الغائب للأقليات الإسلامية يحتاج إلى وقفة صادقة لمساعدتها في مشروع الحفاظ على هويتها والدفاع عن دينها واستثمار قدراتها لتشكيل جسور تعبر من خلالها الدعوة الإسلامية إلى الملتقى الغربي، خاصة أن الإسلام ينتشر بقوته الذاتية في العالم بسرعة وقوة تذهل خبراء السياسة والعلاقات الدولية.

ولا نشك بتاتًا في أنه يمكن للأقليات المسلمة في العالم الغربي، أن تؤدي دورًا فاعلاً، في تصحيح صورة المسلمين في وسائل الإعلام، وذلك إذا تم التنسيق بينها ليس فقط فيما يتعلق بمواجهة التغطية السلبية للإسلام. وإنما في تنفيذ الاستراتيجيات الإعلامية اللازمة، خاصة وأن المسلمين في الدول الغربية، هم الأكثر فهما لطبيعة الجمهور المستهدف،

وأساليب مخاطبته، وهذا أمر يتطلب على الخصوص التفكير لتنظيم خطوات، ومبادرات الأقليات المسلمة، وفق خطة إعلامية موحدة، تستثمر كافة الإمكانيات المتاحة، وتؤدي نشاطها وفق أسس علمية، وذلك من خلال جهاز إسلامي واحد، يجمع شتات هذه المراكز، ويوحد بينها، ويذيب الخلافات العرقية، أو السياسية، أو المذهبية بينها لتتحول إلى جماعات ضغط فاعلة على صانع القرار في العالم الغربي. ثم يتم بعد ذلك ربطها بديار الإسلام وتحديد الأدوار المطلوبة منها بدلاً، من التشتت والتباعد والتفرق.

3 - دور الإعلام:

وقد أجمع المراقبون في العصر الراهن، على الدور الخطير الذي تقوم به وسائل الإعلام بشكل عام، سواء كان دورًا إيجابيًا أو سلبيًا، بل إننا نؤكد على أن وسائل الإعلام اليوم، أصبحت من الأعمدة الرئيسية لقياس قوة البلدان، وتقدم الأمم بعد أن دخل العالم المعلوماتي بصورة مكثفة، وازداد انسياب التدفق الإعلامي بين أقطار العالم بصورة غير معهودة، وبطرق جديدة، كما أن تحديات التكنولوجيا فرضت نفسها على العصر الذي نعيش فيه، حتى أصبح هذا العصر بفضل هذا التطور يعيش في بقعة محدودة، تحدد عوامل الزمان والمكان، مما جعل الإعلام يتحول إلى صناعة ضخمة تحتاج لإمكانيات كبيرة، ولملابيين الدولارات، وبفضله أصبحت الدول المتقدمة تتبوأ الريادة والتفوق على الساحة الدولية، وتسيطر على السوق العالمية لإنتاج وتوزيع السلع والخدمات الإعلامية.

لماذا لم يساهم الإعلام العربي بشكل فعال في تحسين نشر صورة الإسلام والمسلمين؟

حتى غدت هذه الصناعة خاضعة لإمبراطوريات ضخمة، تنظم هذه السوق وفق ظروفها ومصالحها واحتياجاتها. ومما لا شك فيه، فإن المراقبين يرون اليوم، أن العرب والمسلمين لا زالوا، بشكل كبير، عاجزين عن الإسهام الفعال، في تصحيح الصورة النمطية المشوهة عنهم، والتي يروج لها المتعصبون، والمتشجعون، والمتطرفون في القارة الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية، مستهدفين من وراء ذلك بث الكراهية، والبغضاء بين الدول الإسلامية، والشعوب الغربية. أي أن تقاعس الأجهزة الدبلوماسية، والمراكز الثقافية، والبعثات التعليمية الإسلامية عن الاضطلاع بالدور المنوط بها، يأتي في مقدمة الأسباب التي تسهم في تعميم هذا الجهل الغالب بين الأوساط الشعبية في الولايات المتحدة وغرب أوروبا، مما يترك الساحة خالية لتنفرد بها لأهل الأهواء والعداء والتطرف، من كلا الجانبين، حتى لا نعتقد أن الخلل يكمن في الغرب، لأن هناك اختلالات موجودة عندنا في الوطن العربي والعالم الإسلامي، مع وجود جماعات وتيارات سياسية ودينية متطرفة.

وهنا أيضًا، نجد مجموعة من التوصيات:

مثل تأسيس قناة إسلامية فضائية تتحدث باسم المسلمين، وتبث برامجها باللغة الأوروبية، بما يخدم الصور والمفاهيم

الصحيحة عن الإسلام.

استتجار أوقات من البث الإذاعي والتلفزيوني في مختلف القنوات الإعلامية الغربية. التفكير الجاد بامتلاك عدد من محطات الراديو، وتشجيع المستثمرين المسلمين على شراء مثل هذه المحطات، وتوجيهها باللغات الغربية... وغيرها من التوصيات.

ولكننا نرى أن عدم ترجمة هذه التوصيات اليوم في أرض الواقع، لا يمكن بأي حال أن يخدم مشروع تحسين صورة الإسلام في الغرب بشكل عام. إنه مشروع حضاري وليس مشروعاً سياسياً أو دينياً عابراً، وإذا لم نستوعب هذه الخلاصة، فلا نشك أن أزمة صورة الإسلام النمطية والمشوهة في الغرب، ستطول أكثر مما نأمل، لأننا لا نجتهد في مواجهة أهم أسبابها الذاتية والخارجية.

تأسيس مرصد متخصصة في الظاهرة الإرهابية

نود في ختام هذا المداخله، أن نلفت انتباه الحضور الكريم إلى دور المؤسسات البحثية ومراكز الدراسات والأبحاث في التصدي للأطروحات الإسلامية المتشددة، ونلاحظ في هذا المجال، أنه بخلاف تعامل الدول الغربية مع قضاياها الاستراتيجية، من خلال فتح المجال لهذه المراكز لتتولى الطريق أمام صناع القرار في التعامل مع التحديات الداخلية والخارجية، أنه من الغريب أن تكون الدول العربية والإسلامية ضحية للأعمال الإرهابية، ولا تضم مراكز بحثية أو مرصد متخصصة في متابعة ورصد واستشراف آفاق الظاهرة الإرهابية، فقد تعرضت أغلب الدول العربية من الخليج إلى المحيط، من السعودية إلى موريتانيا، إلى تفجيرات إرهابية، وبالرغم من ذلك، لا زالت النخب الفكرية والإعلامية مترددة في تأسيس مراكز متخصصة لمتابعة الظاهرة، ولو قمنا بمقارنة سريعة مع الأوضاع في الولايات المتحدة الأمريكية، لوجدنا أن الإحصاءات تتحدث عن وجود ما لا يقل عن أربعة آلاف معهد ومرصد تعنى بمتابعة أهم القضايا الاستراتيجية للإدارة الأمريكية، وعلى الرغم من الصعوبة التي قد تصادف الباحث في التمييز بين ما تقوم به هذه المؤسسات الخبيرة وجماعات الضغط (اللوبيات)، فإنهما يشتركان معا في لعب دور كبير وقوي في إعداد الاستراتيجيات وتوجيه السياسة الخارجية واستشراف المستقبل واستكناه الأخطار أو الصعوبات التي قد تصادف مسيرة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولهذا، ندعو في هذه المناسبة، إلى التفكير العملي في تأسيس مرصد (observatoire) متخصص في متابعة الظاهرة الإرهابية، بما يساعد في إعداد الاستراتيجيات وتوجيه السياسات وترشيد المشاريع ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة مع الظاهرة الإرهابية.

مراجع المحاضرة

1. كيف يتحول المراهق إلى إرهابي؟ هشام العوضي. جريدة أوان. الكويت. 21/8/2008
2. جواب محمد محمود منصور عن استشارة فقهية حول معالم إعداد منهج إسلامي نستطيع من خلاله حماية شريحة الشباب والأطفال من التشدد والتطرف، ونشرت في موقع إسلام أون لاين بتاريخ 17/4/2006
3. حوار مع الدكتور الهادي الصباح، أداره أحمد حسو، تحت عنوان "علماء الدين والتقاعس عن مواجهة الإرهاب"، ونشر في موقع قنطرة الألماني. 2005
4. دور المجتمع المدني في تطوير جامعة الدول العربية في ضوء التحديات الإقليمية والدولية الراهنة". ندوة نظمتها شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية. تونس في 27 و28 مارس 2004
5. تقرير صادر على هامش أشغال كان اليوم الدراسي الذي نظمه برنامج الشرق الأوسط بمركز الدراسات والاستراتيجية الدولية بواشنطن في 17 يناير 2007 وضم قادة ورجال سلطة من مختلف دول العالم مع خبراء في الاقتصاد، والسياسة، وعلم الاجتماع، وشؤون الأمن، ونظمت الندوة بدعم مالي من "يونير" للموارد الطبيعية وأيلي ليلي وشركة أيني ومؤسسة تاليسمان للطاقة. وصدر ملخص عن التقرير في جريدة التجديد المغربية بتاريخ 10/2/2008
- هل تشكل الجماعات "الجهادية" خطرًا على استقرار الأنظمة المغربية؟
- 6 - دور مؤسسة المجتمع المدني في تحصين الشباب من مرجعية أحداث 16 مايو. كمال الهشومي. موقع:
- http://www.tanmia.ma/article.php3?id_article=1929&lang=ar
- 7 - ونذكر منها كتاب حكم الشرع في دعاوى الإرهاب، وصدر عن المجلس العلمي الأعلى، وهو عبارة عن تجميع للبحوث العلمية التي قدمت إلى ندوة نظمها المجلس حول ذات الموضوع بمدينة الدار البيضاء يوم 19 مايو 2007. الرباط. 2007
- 8 - نذكر من بين هذه الدراسات:
- من مانهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر. محمد أركون وجوزيف مايلا. دار الساقي. لندن. 2008
- القاعدة وأخواتها: قصة الجهاديين العرب. كميل الطويل. دار الساقي. لندن. 2007.
- منتصر حمادة. "نحن وتنظيم القاعدة". دار الأوائل. دمشق. 2008
- مكانة التسامح في الإسلام. خالد أبو الفضل. مكتبة مدبولي. القاهرة. 2006.
- القاعدة والسلفية الجهادية. الروافد الفكرية وحدود المراجعات لدى الحركات الإسلامية الجهادية تأليف. هاني نسيره. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. مؤسسة الأهرام. القاهرة. 2008
- 9 - كيف نقضي على الإرهاب. دانيال بايبس، جريدة "نيويورك سان" في 5/12/2006

